بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

لم تكن النقائض معروفة فى البيئات العلمية معرفةَ صحيحة إلى أوائل القرن العشرين حين أخذ الأستاذ أنتونى أشلى بيفان Anthony Ashley Bevan ينشر نقائض جرير والفرزدق (١٩٠٥ — ١٩١٢ م) وحين تبعه الأب أنطون صالحانى اليسوعى فنشر نقائض جرير والأخطل سنة ١٩٢٢ م ، وكل ما كان يعرف من النقائض هو ما كان وارداً فى بعض الدواوين أو المراجع الأدبية العامة ، فكان نشر هذين الديوانين نعمة كبرى على الدراسات الأدبية فى الشرق العربى .

ومع ذلك ، لم تلق نقائض هؤلاء الفحول بمصر أو غيرها العناية التى تستأهلها ، وسارت الدراسة فى المعاهد العلمية سيرتها المألوفة من تلخيص النظريات التاريخية ونقل الآراء والملاحظات النقدية دون تدقيق واستقصاء .

فلما دعيتُ للتدريس بكلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ثلاثين وتسعمائة وألف ، على ما أذكر ، كان الأستاذ الدكتور طه حسين يدرس نقائض جرير وصاحبيه مع طلاب قسم اللغة العربية دراسة تاريخية أدبية قيمة ، ويسلك فى ذلك مسلكاً علمياً ممتازاً ، ويشرك معه الطلاب فى البحث ، فكانت دراسته هذه فذة معاهد مصر والبلاد العربية جميعاً .

فلما ترك الجامعة بعد ذلك بقليل ، تابعتُ هذه الدراسة مع الطلاب فى فترات متفرقة ، تبعاً لنظام القسم وجداوله الدراسية ، وتعلقاً بهذا الفن الخطير ، على ما يستوجب من الجد ، والأناة ، وسعة الأفق ، ويثمر بذلك ثماراً عظيمة ، بعيدة الاثر فى تاريخ الأدب العربى ، ونقده ، ومقوماته .

وكنت أشعر بما يحتمل الطلاب من مشاق فى هذا الدرس مع إدراكهم جليل خطره ، وعظيم أثره ، لما يلقاهم به من غريب اللغة . والعبارات ، والصور ، وما يقتضيهم من ثقافة منوعة عميقة حتى يفقهوا أدباً أنشىء فى مكان وزمان بعد بهما العهد ، وكان تعبيراً عن عناصر ، وعوامل ، ومواهب وبيئات خاصة غريبة لا بد من تمثلها وتعمقها لفقه هذا الأدب ، وتبين مافيه من خصائص موضوعية ، ومعنوية ، وأسلوبية عجيبة ، حتى كانت النقائض مثال الأدب الصعب المحبوب ، وحتى قضيت مع الطلاب شهوراً عدة فى دروس نقيضتين ... لها ساعتان كل أسبوع .

ولما فرغت منذ سنتين لدراسة الأدب القديم ، والإسلامى منه خاصة ، بدا لى أن أنشر بعض هذه الدراسة ، فطبعت «تاريخ الشعر السياسى» ووعدت فى آخره أن آخذ فى تأريخ النقائض ، وهنا ضممت ملاحظاتى السابقة إلى ما تيسر لى أخيراً فكان منها هذه الفصول التى أقدمها للقراء .

— ٢ —

ولم يكن من الطبعى أن يظهر التاريخ الأدبى على فن النقائض قوياً رائعاً فى زمن الأمويين دون أن تكون له مقدمات وسوابق فتحت طرقه . وأعدّت أصوله ، ومهدت لاستحالته ، فرجعت إلى ماضى الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام فظفرت منه بحلقتين فى هذه السلسلة أو عصرين ممتازين : عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، ووجدت لكل عصر من

الثلاثة طوابع خاصة وأخرى مشتركة بينها جميعاً ، إذ كان تطور الأدب بطيئاً ولا سيما فى جانبه الفنى ، وعلى هذا الأساس قام المنهج الدراسى لهذا الفن الخطير .

وكان أمامى ، مع ذلك ، طريقان :

أحدهما أن أتبع المذهب الفنى الغالب ، وأساير ابن سلام فى طبقاته ، فأضيف فترة البعثة إلى العصر الجاهلى إذ كان التعبير فيها جاهلياً بعامة ، وتكون فترة الأمويين هى عصر النقائض الثانى .

وثانيهما أن أعترف بفترة المخضرمين فأعدها عصراً مستقلا من عصور النقائض ، كما صنعت فى تاريخ الشعر السياسى ، وكما أشار ابن رشيق فى عمدته وهذا الطريق الثانى هو ما اتبعته هنا لامتياز عصر البعثة بتغير موضوعات النقائض ، ومعانيها ، وغايتها ، وبأنه عصر تحول وانتقال ظهر أثره فى أسلوب الشعر ما بين جاهلى محافظ ، وآخر مضطرب ، وثالث مبعوث بعدما كان خافتاً هو شعر قريش بمكة خاصة . على أن عصر البعثة امتاز فى النقائض بتدخل اليهود ، وتغير مواقف الشعراء بين مكة والمدينة ، وظهور أثر الاسلام فى الشعر ، وهذه النهضة التى لابست الدعوة الاسلامية الجديدة .

ومادام الموضوع جديداً فلابد فيه من اختلاف وجهة النظر ، ولا بأس بسلوك أحد الطريقين مابقى خالياً من الخطإ الأساسى ، قائماً على أصل نافع مقبول .

وبجانب هـذا الجانب التاريخى فى منهجنا راعيت الجانب الفنى أيضاً ، فحاولت بيانَ الخصائص الفنية لكل عصر من عصور النقائض . وذكرت مزايا الشعراء البارزين فى كل عصر وبخاصة فحول الأمويين لما امتازوا به من تمثيل هـذا الفن تمثلا واضحاً ، ونهوضهم به نهوضاً خيل للناس أنهم مُبتدعوه وأنهم أربابه الأولون .

وكانت فصول كل باب ، أو كل عصر ، خاضعة فى تنسيقها وترتيبها لأقيسة منطقية حسبما تراءى لى ، كالقول فى نشأة النقائض الجاهلية وفنونها ومقوماتها وعناصرها ، وصلاتها بأيام القحطانية ، فأيام العدنانية ، فالحوادث الاجتماعية ثم خواصها الفنية ، ومثل ذلك فى عصر البعثة ، فإذا كان العصر الأموى زادت الفصول للبحث فى شعراء النقائض ، والوقوف عند نقائض جرير وزميليه وهى التى دعوتها النقائض الخاصة ، ثم البحث فى قيمة النقائض الأموية وخصائصها الأدبية .

وقد عمدت فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام إلى أن عرض قسما كبيراً من نصوص النقائض لعدم جمعها فى ديوان خاص مع الإشارة إلى مراجعها ، ولم أعمد إلى نحو ذلك فى نقائض جرير والفرزدق والأخطل لجمعها فى دواوين ملشورة فاكتفيت منها ببعض الشواهد .

ولما كانت هذه الدراسة جديدة فقد مهدت لها بالتعريف بالنقائض ومايقابلها من فنون أخرى نثراً ونظماً ، وبيان الطرق التى سلكها الشعراء فى نقض المعانى ، واضطرت حينئذ إلى وضع مصطلحات تميز بينها كالقلب ، والموازنة ، والتوجيه ، والتسليم ، والوعيد . ولست ، مع ذلك ، متشبثاً بها ولا مخدوعا ، فقد يوضع أدق منها إذا لزم ذلك ، ولا مشاحه فى الاصطلاح كما يقول السابقون .

— ٣ —

درس النقائض ناقع من وجوه ؛ فهو كشف عن فن جديد من فنون الشعر العربى له خطره ، وله شعراؤه ، وله آثاره فى تهذيب النفوس ؛ وهو معونة قيمة فى تأريخ الأدب العربى بعامة والقديم منه بوجه خاص. ودرس النقائض هو فى الواقع درس الشعر العربى القديم فى أرقى صوره ، وأهم فنونه ، وعند أشهر فحوله وخاصة بعد الإسلام ، وبذلك يفيض على العقل ، والشعور

والذوق من جلاله وجماله ، ويعد الدارس للحياة فى عصور الحضارة العربية الأصيلة والعيش مع رجالها ، وهم يصورونها أدباً رائعاً قوياً ، ويتلاحون فى ظلالها خاضعين لعوامل خاصة وعامة ... أليس فى ذلك إطالة للعمر ، وتهذيب للنفس ، وترقية للحياة ؟

على أن هناك فنونا من الشعر ثلاثة ظفرت فى ظل الأمويين بتجديد قوى ونشاط واضح جعلها أشبه بالفنون المستحدثة ، هى النقائض ، والشعر السياسى ، والعشر الغزلى .

وكان الغزل فى الحجاز ، والآخران فى العراق ، وكان الغزل يصور شعور الأفراد ، والنقائض تمثل مواقف القبائل وشخصياتها ، والشعر السياسى يمثل الأحزاب المختلفة . . . هذا هو الغالب العام .

وقد استأثرت النقائض بفحول الشعراء وطبقتهم الأولى ، وتركت للغزل والساسية شعراء الطبقات الأخرى ، وكان أسلوب النقائض فخما جليلا ، كما كان أسلوب الغزل رقيقاً جميلا ، وأسلوب السياسة واضحاً مختلف الصفات فكانت هذه الفنون خليقه بالعناية . وقد كنت معتزما تأريخ الغزل فى كتاب خاص إتماماً لدراسة هذه الفنون الطاغية على الشعر الأموى . ولكنى تركته — ولو إلى حين — لأحد طلاب (الماجستير) الذى أخذ يدرسه مع إشرافى .

— ٤ —

ومهما يكن ما لقيت فى هذه الدراسة من عناء ، فإنى معترف من الآن بأن النقائض فى حاجة إلى استئناف البحث سواء فى جوانبها السياسية ، والاجتماعية ، والفنية ، أو فى ما يلابسها من عوامل ومقومات ،

وما استدعت من نقد وشروح ، وأرجو أن يعنى الباحثون بدرس هذا الفن لعلهم واجدون فيه من النتائج القيمة الخطيرة كفاء ما يبذلون فى سبيلها من أوقات ومشاق .

أحمد الشايب

القاهرة فى { ٢٧ من المحرم سنة ١٣٦٥هـ
اول يناير سنة ١٩٤٦ م